

فكاهة (١)

لم يشك أحد من أهل الغربية في أن لنا وزارة قوية غنية ماهرة تحسن حشد الجند وحصار المدن ، واقتحام المواقع الخطرة ، ورد الجيوش الزاحفة ، فقد كانت الغربية يوم الاثنين ميدانا لهذه البراعة التي لا حد لها . والغريب أن بلاغ التهنة لم يصدر بعد من وزير الداخلية إلى الجند والشرطة الذين عرفوا كيف يسجلون لأنفسهم ولقاداتهم هذا الفوز البارع الذي لا غبار عليه .

ومن المحقق أن المصريين مطمئنون سينامون ملء جفونهم منذ اليوم . فقد ثبت أن لديهم من قوة الدفاع ومن المهارة فيه ما يحميهم من عدوان المعتدين وزحف الزاحفين ، فكل دولة كبيرة أو صغيرة تخيل إلى نفسها أنها تستطيع أن تطمع في مصر أو تزحف عليها أو تعيث بحق من حقوقها ، فهي واثقة بأنها سترد عن ذلك . وقد خابت الآمال وكذبت الأمانى وألم بها الحزى وأظلم في وجهها الزمان . ففى مصر جنود وبنود ، وفي مصر قوة وفتوة ، وفي مصر قادة يعرفون كيف يدبرون الكر والفر ، ويتقنون رد المغير والإحداق به وأخذ الطرق عليه .

المصريون مطمئنون سينامون ملء جفونهم منذ اليوم ، ومن حقهم إذا ناموا أن يحلموا بعظماء الأمور وجلائل الأعمال ، ومن حقهم أن يستردوا مجدهم القديم وعزهم التليد ، وأن يروا أنفسهم كما كانوا أيام الفراعنة وأيام الفاطميين والمماليك ، بل أيام محمد على الكبير غزاة فاتحين وسادة متسلطين يغيرون فينتصرون ، ويغزون فيظفرون وتحقق الويتهم المظفرة على أقطار الأرض مهما تبعد بينهم وبينها المسافات .

فإن هذا البلاء الحسن البديع الذى أبلاه الجند والشرطة أول أمس في مدينة طنطا ومن حولها وفي الطريق بينها وبين زفتى وفي الطريق بينها وبين مسجد وصيف ، خليق أن يعيد تلك الأيام ويصدق هذه الأحلام ويثبت للعالم الحديث ما أثبتناه للعالم القديم من أن قوتنا

أعز من أن تغلب وبأسنا أشد من أن يرد ، ومن أن الناس إن كانوا يريدون الحياة المطمئنة الآمنة خليقون أن يقدرونا ويحسبوا لنا ألف حساب وحساب .

ما كان أبرع الشرطة وأمهر قادتها حين أرادوا أن يزودوا رئيس الوفد عن طنطا فذاذوه ، وكيف ذاذوه ؟ تركوه ينزل من القطار ويخترق المدينة من طرف إلى طرف ، والناس من حوله يلقيه بما يحبون أن يلقوه به من الحب الصادق والود الخالص حتى إذا مر الرئيس بجماعة فتلقى منهم حبه وودهم وتحيتهم أقبل الشرطة على هؤلاء الناس فجزوهم على هذا الود والحب والتحية أجمل الجزاء وأمثلة ، وأصلوهم من عصيهم نارا حامية تمثل قلوبا قاسية وشجاعة لا يعرفها إلا الأبطال الممتازون . وكذلك زار رئيس الوفد مدينة طنطا فلقى أهلها ولقوه ، وحيا أهلها وحيوه والشرطة تنظر إليه وإليهم ثم تصلهم بعد ذلك أشد العذاب .

أما على الطريق العام فحدث عن الطلائع السابقة والكتائب المتلاحقة ، وعن المناورات والمداورات وعن الخنوع والخشوع إذا أشرف رئيس الوفد ، ثم عن التجبر والتمتر بعد أن يمضي ، حتى إذا بلغ الركب مدينة زفتى كانت هناك آية الآيات ومعجزة المعجزات . كان هناك الحصار الضيق والدفاع المتقن ، ومظهر العدة والعدد ، ومظهر القوة والبأس ، ومظهر العظمة والجلال . كانت هناك الاستحكامات التي طوقت بها المدينة تطويقا . فالسيارات على اختلافها ترص رصا ، وتتخذ بها المنافذ والسبل والخنادق العميقة تحتفر في الأرض والأسوار الهائلة من التراب ترتفع إلى السماء ، وقد أخلت شوارع المدينة من أهلها ، وأكره الناس على أن يلزموا بيوتهم ، وقطعت المواصلات بين هذه المدينة وما يجاورها من المدن والقرى ، ثم سلط المصورون على هذه الشوارع الخالية والطرق المقفرة ، وأبعد عنها حتى الجند وصورت كما هي خالية من كل إنسان ، برئية من كل حركة ؛ لتقدم هذه الصور بعد ذلك إلى الذين يعينهم الأمر دليلا على أن رئيس الوفد لم يلق أحدا ، ولم يلقه أحد في هذه المدينة ، ولم لا ؟ لقد لقي الناس في طنطا فحسبه ذلك ، ويجب أن لا يلقاهم في زفتى ، ولم لا ؟ لقد عملت عصي الشرطة في أجسام الناس الذين لم يلقهم رئيس الوفد في زفتى . وكذلك أظهرت القيادة العليا شدة ولينا وقسوة ورحمة وعدلا وإنصافا . اشتدت على أهل طنطا ورفقت بأهل زفتى .

وسلكت القيادة العليا هذه الطريق نفسها فتركت الناس يلقون رئيس الوفد في مسجد وصيف محتاطة لذلك ، مبالغة في الاحتياط ، قد أرصدت الجند والقطار المسلح وأعدت عصي الشرطة للعمل في الأجسام حتى إذا دنا الراكب إلى بنها كان الحصار والدفاع ، وكان الاستيلاء على الجسور والاحتياط في أخذ الطرق والمسالك . وأى غرابة في هذا ؟ أليست بنها موقعا حصينا ، وقلعة عظيمة الخطر ، لا ينبغي أن يدخلها العدو أو يدنو منها ، وإنما حسبه أن يراها ويدور حولها ويمر بها ولم يظهر منها بشيء ! .

وكذلك مثلت أول أمس هذه القصة المحزنة المضحكة فلقى الناس عذابا ، ولقى الناس ما يضحك ويسرى عن النفوس ، وكذلك أظهر وزير الداخلية وعماله في الأقاليم أن لمصر قوة لا ترد ، وشرطة لا تصد ، وسلطانا لا سبيل عليه . ولم يكن ينقص هذه القصة البارعة إلا شيء واحد ، كانت في حاجة إليه لتستقيم فصولها ويحسن أثرها في النفوس ، وهو قليل من الحياء . ماذا أقول ؟ يظهر أنى لا أحسن فن التمثيل ، ولا أعرف من أصوله شيئا ، فلو قد دخل عنصر الحياء في هذه القصة ولو بمقدار يسير ضئيل لما حوصرت مدينة هادئة مطمئنة هذا الحصار ، ولما سلط عليها مئات من الجند ، ولما حفرت في أرضها الخنادق ولما أقيمت حولها أسوار التراب . لو دخل عنصر الحياء في هذه القصة لما استطاع وزير أن يأمر بذلك ، ولما استطاع مدير أن ينفذ ذلك ، ولما استطاع ضابط وشرطي أن يعملوا في تنفيذ ذلك ولحرم النظارة من أهل الغربية أن يشهدوا هذا المنظر البديع ، مشهد الدولة المصرية كلها تعلن في إقليم من أقاليمها شيئا يشبه حالة الحرب وترصد بأسها وقوتها وجندها وشرطتها للمحافظة على أمن لم يتعرض لخطر وإقرار نظام لم يتعرض لاضطراب ، ولاتقاء رجلين اثنين أعزلين يزوران قوما عزلا ، لاحظ لهم من سلاح ، ولا رغبة لهم في كفاح .

نعم لو دخل عنصر الحياء في هذه القصة لحرم النظارة من أهل الغربية تمثيل هذه القصة الرائعة ، ولحرم القراء من أهل مصر قراءة هذه القصة والعلم بما أحرزت من فوز ، ولحرم الشرق والغرب العلم بمغزى هذه القصة والاعتبار بما تدل عليه من أن أهل مصر مازالت بحمد الله قوية فتية يجب أن تخاف ويجب أن يحسب لها حساب . فالحمد لله الذي قدر لهذه القصة ما قدر لها من فوز فأشعر المصريين بقوتهم ، وأشعر الناس ببأس المصريين . والحمد لله الذي أتاح لرئيس الوفد وصاحبه أن يعلموا ما كان يجهلان ، ويريا بأعينهما ما كانا يجحدان . فقد ثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن الروح الوطنى في مصر قد مات موتا لا رجعة بعده ولا بعث . مات فما يخفق به قلب وما ينبض به عرق وما يحسه إنسان .

مات وأصبح حديثا من أحاديث التاريخ وآية ذلك أنهما مرا بإقليم من أقاليم مصر ، أو إقليمين أو أقاليم فلم يريهما أحد ، ولم يريا أحدا إلا هذه الجنود المجندة التى لم ترسلها الدولة إلا لتظهر لهما شيئا من الحفاوة اليسيرة . وأى غرابة فى أن يتفضل المنتصر الظافر على المنهزم المغلوب بشيء من التحية وقليل من الحفاوة ؟ إنما أرادت القيادة العليا فى ظفرها وفوزها أن تقدم لخصومها المنهزمين تحية إن دلت على شيء فإنما تدل على الظرف والعطف وحسن الرعاية للمغلوبين الذين ألقوا السلاح .

تسألنى بعد ذلك متى يتيح الله لمصر حظا من الجد ، ويصرف عنها بعض هذا الهزل الذى أغرقت فيه ، فلا تتعجل ولا تضجر فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . لا تضق بهذا الهزل فإن فيه تسلية للهموم وتلهية عن الكروب . ولو قد حرمت مصر هذا الهزل ، ولو قد صرفت عن مصر هذه الدعابة لضاقت بما يلقي أهلها من آلام وبما يقترب فيها آثام وما يصب عليها من مكروه . ولكانت نتيجة هذا الضيق خطرا كبيرا وشر مستطيرا .

فالحمد لله الذى رزق مصر وزارة ، لا كالوزارات ، تجرح باليمين وتأسو بالشمال . تصب العذاب من ناحية وتهون وقعه بالدعابة من ناحية أخرى وتجعل حياة المصريين مزاجا معتدلا من الجد والهزل ، ومن الشدة واللين . فتأخذها بالبأس وتعينها على احتمال البأس حتى يأتى اليوم الذى تنجلي فيه الغمرة ، ولعل هذا اليوم أن يكون قريبا .